الحجُّ عبادة و حركة و سياسة

تأليف: محمّد حسين فضل الله

لعلّ من أبرز خصائص الإسلام في تشريعاته العبادية والحياتية، هو هذا الشمول في النظرة الي الإنسان، فيما يريد أن يحققه من غايات في تنمية شخصيته، وفي مسيرة حياته انطلاقاً من الكفرة الواقعية التي لا تنظر إلي الإنسان الكائن علي أنه ذوبُعد واحد، ليمكن لنا أن نعالج أوضاعه من جهة واحدة، بل هو كائن ذو أبعاد تلتقي فيها الشخصية الفردية بالشخصية الاجتماعية من دون أن تسمح احداهما في خصائصها الذاتية بالانفصال عن الاخري، كما يمتزج في داخلها الجانب الروحي بالجانب المادي، فليس هناك عنصر مادي تختنق فيه النفس في داخل الأسوار المادية، وليس هناك عنصر روحي تحلّق فيه النفس بعيداً بعيداً عن المادة، في حالة تجريدية رائعة. . بل هي المادة النابضة بالروح أو الروح المنطلقة في حركة المادة.

وفي ضوء ذلك أكّد الإسلام علي ممارسة الإنسان للحياة بشكل طبيعي واعتبر الانحراف عن ذلك خروجاً عن التوازن والاستقامة في انطلاقة الإنسان المسلم في الحياة، فقد جاء في بعض الكلمات المأثورة ((ليس منا من ترك دنياه لآخرته ومن ترك آخرته لدنياه)) ، كما جاء في الحديث الشريف، ((من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم)) ، وقوله (صلّي الله عليه و آله وسلّم) :

((لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها)) . . مما يعني أن العزلة عن الحياة لا تمثل قيمة كبيرة من قيم الإسلام في الحياة، كما أن الفردية المغرقة في ذاتيتها المختنقة داخل قضاياها الخاصة، تمثل ضدّ القيمة في السلوك الإنساني في نظر الإسلام.

وربما كان من خصائص هذه النظرة الشمولية للإنسان، أنّ الإسلام يريد لأيَّة قضية من قضايا الإنسان، ولأيّة ممارسة من ممارسة، أن تتحرك في خط القضايا والممارسات الأخري، بحيث تكمّل نقصاً فيه، أو تسدّ فراغاً في وجوده. . فإذا تحرّك الإسلام في خط التربية الفردية لحياة الإنسان، فإنه يريد - من خلال ذلك - أن يختار له من الصفات الكريمة ما يرفع مستوي إنسانيته، ويحقق له الشخصية الخيّرة في الحلق الاجتماعي، فلا قيمة للعلم مهما بلغت درجة صاحبه فيه، إذا لم يرتفع بالإنسان إلي مستوي العطاء الذي يفتح فيه الإنسان من نفسه مدرسة للآخرين ويحقّق للحياة من فكره خبرةً واسعة تمنحها فرصة النّمو والتقدم والازدهار، ولا قيمة للقوّة إذا لم تستطع أن تتحول إلي عنصر من عناصر القوّة التي تنقذ الآخرين من عوامل الضعف الإنساني. . وهكذا يجد الإسلام في الكمال الفردي الإنساني مفتاحاً للدخول إلي الكمال الإنساني الاجتماعي. . ويوحي بالفكرة التي تعطي للخصائص الأخلاقية قيمتها الكبيرة، إذا استطاعت أن تحقق للإنسان ذاته في حركته في قلب المجتمع، وترفض منح القيمة للّذين يمارسون عمليّة النمو في العزلة البعيدة عن الحياة.

وقد أراد الإسلام أن يثير هذه النظرة الشمولية في تشريعه للعبادات. . فقد جاء الإسلام إلي الحياة، والتقي بالنظرة الروحية التي تعتبر العبادة شأناً من شؤون السماء ولا علاقة لها بالأرض فليس من المفروض للعبادة في قيمتها الروحية أن تحقق هدفاً كبيراً تتحرك - علي أساسه - في شؤونها الاجتماعية واسياسية والاقتصادية، بل كلّ دورها ومهمتها، أنّها ترتفع بالروح الإنسانية إلي الله في غيبوبة روحية خالصة، يعيش فيه الإنسان روحانية الخشوع والخضوع والعبودية لخالقه، فيحس معها بالسعادة والنشوة والامتداد في أجواء المطلق والقرب من الله. . وبذلك كانت الرهبانية مظهر السموّ في الروح والإخلاص في

العبادة لأنها تعزل الإنسان عن كل زخارف الحياة وشهواتها ومشاكلها وقضاياها الصغيرة، وتربطه بالله. . .
وبدأ الإسلام تغيير هذه النظرة إلي العبادة من خلال تغييره للنظرة إلي دور الإنسان في الحياة. . فإذا كان الإنسان خليفة الله في الأرض، وإذا كانت الأرض هي الساحة التي يريد الله لعباده أن يحققوا فيها إنسانيتهم في خطّ السمّو الذي ترسمه لهم رسالاته ويخططوا في جوانبها برامجهم في شؤون النّمو والتقدّم والازدهار علي أساس سنن الله في الأرض. . فإن معني ذلك أن الدور الإنساني في رعاية حركة الحياة وإدارة شؤونها وتخطيط مراحلها وبرمجة أهدافها ليس بعيداً عن ارادة الله ومحبته ورضاه بل ربّما كان في القرب من الله، والتأكيد علي عمق عبوديته له - فيما تمثله العبادة - باعثاً علي تحقيق هذه المعاني في نفس الإنسان وحياته بطريقةٍ أفضل، وبإخلاص أكمل. .
وقد أعطي الإسلام العبادة - في هذا الاتجاه - معناها الجديد، وطابعها المميّز ودورها العملي، فلم تعد مجرد حالة وجدانية روحية ذاتيتة يعيش فيها الإنسان معه ربّه، بل تحولت إلي قاعدة من قواعد التربية التي تتنوع فيها الممارسة لتحقق للإنسان أهدافاً عملية، في حركة شخصيته، وفي مجري حياته العامّة والخاصة. . فأصبح الإنسان يعيش فيها مع ربّه، ليلتقي - من خلاله - بحياته، فيملأها بكل المعاني والأهداف والقيم الكبيرة التي يحبها الله ويرضاها، ويحب الناس الذين يعيشونها في عمق الروح، وفي امتداد الحياة كما يوحي بذلك الحدديث المأثور والشريف ((الخلق عيال الله، وأحبهم إلي الله أنفعهم لعياله)) .
فإذا التقينا بالصلاة في الإسلام فإننا نجدها - في القرآن الكريم - وسيلةً من وسائل تنمية الشخصية في خط الخير والصلاح والسمو الإنساني فيما يمثله خط الابتعاد عن الفحشاء والمنكر فيما ورد من قوله تعالي: وأقم الصلاة إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر. . . وفيما يوحي به الحديث الشريف ((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعداً. . وفيما عبر عنه قوله تعالي: فويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون مما يوحي بأن الصلاة تدخل ففي قيمتها الدينية في عمق الحياة الفردية والاجتماعية، بقدر ما يتعلق الأمر بالقيم الإيجابية والسلبية التي تحققها الصلاة في حركة الحياة للإنسان. . سواء في ذلك ما يمارسه الإنسان في حقله الفردي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي، انطلاقاً من شمول كلمة الفحشاء والمنكر لكل الأوضاع السلبية، التي يريد الإسلام للإنسان الابتعاد عنها في جميع هذه الأمور، فلا قيمة لصلاة الطغاة والمتكبرين والظالمين والمتعاونين معهم، والخائنين لأمتهم ولدينهم، كما لا قيمة لصلاة السارقين والكذابين والزناة والمغتابين والنمّامين والآكلين للحرام من مال أو طعام. . لأن الصلاة لم تحقق للإنسان شيئاً عملياً في خط الاستقامة أو البعد عن الانحراف. . الأمر الذي يجعل الناس لا يُخدعون بصلاة المنحرفين عن الإسلام في قيمته وشريعته، فيبتعدون بذلك عن السذاجة والبساطة في تقديرهم للأمور، في مواجهتهم للواقع، فإذا رأوا إنساناً مسؤولاً يؤدي صلاته في خشوع، فعليهم أن ينتظروه ليخرج من المسجد وينفصل عن أجواء الصلاة، وينتقلِ إلي مجالات الحكم والسياسة والإدارة ليعرفوا - من خلال ذلك - كيف تمتّد الصلاة داخلَ حياته في هذه المجالات، أو كيف تبتعد عنها تماماً، ليحدّدوا موقفهم علي أساس ذلك كما ورد في الحديث المأثور عن أئمة اهل البيت، الذي يرفض أن يكون طول الركوع والسجود مقياساً لمعرفة الرجل؛ لأن ذلك ربما يكون جارياً مجري العادة التي يستوحش الإنسان إذا تركها، واعتبر المقياس - بدلاً من ذلك - صدق الحديث وأداء الأمانة؛ لأنهما يدخلان في عمق الشخصية الإسلاميّة. . فإذا التقينا بالصوم نجد أن الله جعله فريضة يحقق للإنسان من خلالها شخصيته التقيّة التي تقف عند أبواب الحرام المفتوحة أمامها فلا تدخلها، كما يؤكد فيها الإنسان حسّه الإنساني

ومشاعره الروحية، والاجتماعية. . عندما يجد طعم الجوع والظمإ في إحساسه بالصوم؛ فيتذكر جوع الجائعين وظمأ الظامئين فيفهم معني مشكله الجوع والظمأ من موقع المعاناة الذاتية، لا سيما إذا كان غنيّاً لا يعيش الحاجة إلي الأشياء من خلال حياته العادية؛ لأنه إذا أراد شيئاً حصل عليه، وهكذا كان دور الصوم إنسانيّاً اجتماعيّاً إلي جانب الدور الروحي الذي يحقق فيه الإنسان علاقته الروحية بالله. . ومن الممكن للإنسان أن يتعلم من الصوم: الرفض العلمي لكل الأوضاع المنحرفة في الواقع السياسي والاجتماعي اِنطلاقاً من إرادته الإسلامية القويّة التي ترفض الحرام في العمل الفردي؛ لترفضه في نهاية المطاف في الواقع الاجتماعي والسياسي العام.

٤قيمة الحجّ بين العبادات:

والحج من هذه العبادات الإسلامية التي أرادها الله للناس، لتتحقق لهم من خلالها النظرة الشاملة لقضية الإنسان في الحياة. . فقد جعله الله فريضة علي كل من استطاع إليه سبيلاً، واعتبر تركها خروجاً علي عمق الالتزام الإسلامي، حتي جعل التارك لها في حكم الخارج عن الإسلام. . وقد تعبّد الله به عباده منذ النبي إبراهيم (عليه السلام) وجاء الإسلام فأضاف إليه شروطاً وأحكاماً وحدّد له أهدافاً، ورسم له خطوطاً من أجل أن يحقق للإسلام الدور الكبير في الحياة، في فاعلية وامتداد، فلم يقتصر فيه علي جانب واحد من جوانب التربية، بل استوعب المعاني التي تنطلق من العبادات الأخري، فشرّع الإحرام في كل التزاماته وتروكه؛ ليحقق للإنسان أهداف الصوم، ولكن في أسلوب متحرّك متنوع لا يخاطب في الإنسان جوع الجسد وظمأه، ولكنه يخاطب فيه جوانب أخري، تهذب فيه نزعة القوّة فتوحي له بالسلام، ونزعة التعلق باللّذة فتوحي له بالانضباط والتوازن، ونزعة الترف فتقوده إلي الخشونة، ونزعة الكبرياء فتوجهه إلي التواضع، وتعلّمه كيف يحرّك الفكر والثقافة والمعرفة، في اتجاه الحق بدلاً من الباطل لتبقي المعرفة سبيله الوحيد في حركة الكلمة و الفكرة، وشرّع الطواف و جعله صلاة؛ ليعيش معه الإنسان آفاق الصلاة وروحيتها فيما يمثله من طواف حول البيت، الذي أراده الله رمزاً للوحدة بين الناس، في معناه الروحي المتصل بالله، لا في مدلوله المادي المتمثل بالحجارة، وللإيحاء بأن الحياة لا بد من أن تتحول إلي طوافٍ حول إرادة الله، فيما يتمثل في بيته من مشاعر الطهارة والنقاء والخير والبركة والرحمة والمحبّة. لتكون الحياة حركة في طريق الأهداف الي يحبّها الله ويرضاها، ويريد لعباده أن ينطلقوا معها في رساليّة ومسؤوليّة. .

وفرض السعي بين الصفا والمروة؛ ليعيش الإنسان معه االشعور الواعي بأن خطواته لا بد من أن تتجه إلي الجالات الخيّرة؛ ليكون سعيه سعياً في سبيل الخير، وابتعاداً عن طريق الشرّ، فهو يسعي هنا لا لشيء إلا لأنّ الله أراد منه ذلك ليحصل علي القرب منه. . مما يوحي بأن السعي هنا إذا كان للحصول علي مرضاة الله فيما تعبّدنا به من أمره ونهيه، فينبغي لنا ان نطلق السعي في مجالات الحياة الأخري، في كل آفاقها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، في الاتجاه نفسه لنحصل علي رضاه في كل أمورنا. .

أمّا الوقفات التي أرادها الله في عرفات والمشعر ومني، فإنها وقفات تأمل وحساب وتدّبر وانطلاق؛ ليستعيد فيها الإنسان مبادئه التي قد تضيع في غمرات الصراع، التي يخوضها في سبيل لقمة العيش، أو في سبيل تحقيق رغباته ومطامعه المشروعة وغير المشروعة، فإنّ الإنسان قد يفقد الكثير من قيمةِ الكبيرة، تحت تأثير النوازع الذاتية من جهة، والتحديات المضادّة التي قد تخلق لديه ردود فعل متوترة، - من جهة أخري - فينسي في غمرة ذلك كله الكثير الكثير مما يؤمن به أو يدعو إليه. . الأمر الذي يجعله بحاجة إلي مزيد من التأمل والمحاسبة، التي يرجع فيها إلي فكره وعقيدته وخطه المستقيم في الحياة.

وجعل الأضحيّة رمزاً حيّاً للتضحية والعطاء فيما يرممز إليه من تاريخ إبراهيم و إسماعيل، عندما أسلما لله الأمر وانتصرا علي نوازع الأبوّة في عاطفتها تجاه النبوة، وعلي حب الذات في إحساس الإنسان بحياته. . وانتهي الأمر إلي أن فداه الله بذبح عظيم، وفيما يريد أن تثير في حياة الإنسان في كل زمان من السير علي هدي هذه الروح؛ ليكون ذلك خطاً عملياً، تسير عليه الحياة في كل مرحلة تحتاجها للتضحية والعطاء. . وكان رجم الشيطان، إيحاءً بما يريد الله للإنسان أن يعيش في حياته كهمّ يومي يواجه فيه خطوات الشيطان في فكره وعاطفته وقوله وفعله، وانتماءاته وعلاقاته العامة والخاصة. وربما كان في هذا التكرير في الفريضة لرجم الشيطان الرمز إشارة بأن قضية محاربة الإنسان للشيطان ليست قضية حالة واحدة يعيشها الإنسان ويتركها، بل هي قضية متجددة في كل يوم. . وهكذا يمكن أن يساهم الحج في إيحاءاته ورموزه وأجوائه الروحيّة، في تنمية الشخصية الإنسانية من الجانب التأملي والعملي والروحي، فيما إذا عاش الإنسان هذه الفريضة من موقع الوعي المسؤول؛ لذلك لا يبقي مجرّد عبادة يهرب فيها الإنسان من الواقع ليغيب في مشاعره الذاتية في جوّ مشبعٍ بالضباب، كما يحاول البعض أن يصوّر العبادة. . وفي هذه الأجواء الروحية الواعية المتحركة في خط المسؤولية يمكن أن يعود الإنسان الفرد من رحلة الحج إنساناً جديداً في أهدافه ومنطلقاته وخطواته، من خلال ما عاشه من دروس وعبر ومواقف تأمّلات، حيث الطهر والخير والمحبّة والحنان، ولعلّ هذا هو ما يريد الإسلام أن يوحيه للحاجّ فيما ورد في الأحاديث التي توحي بأن الإنسان يخرج من الحج كيوم ولدته أمّه، وأنه يقال له استأنف العمل من جديد. . وذلك في نطاق المضمون الداخلي للحج، لا من خلال الشكل الخارجي الذي يؤديه الكثيرون بدون روحٍ وبدون معني ممن يعيشون الحج عادةً وتقليداً وسياحةً وتجارةً فينطبق عليه ما ورد عن أحد أئمة أهل البيت (عليه السلام) عندما نظر إلي الجموع المحتشدة في الموقف، أو في بيت الله فقال: ((ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج)) ! إذا لا قيمة للعدد إذا لم يكن متحركاً في عمق القيم الروحية في الحياة، فرب رقم صغير يحقق للإنسانية معني كبيراً هو أفضل من رقم كبير لا يحقق شيئاً للحياة إلا زيادةً في الساحة والحجم علي صعيد الأرض، من هؤلاء الذين يكونون عبئاً علي الحياة بدلاً من أن يكونوا قوّة لها.

أبعاد الروحية:

واذا كان الحج من حيث هو عبادة ذات مضمون عملي وروحي، يحقق للإنسان هذا الارتفاع الروحي، فإنه يساعد علي تغيير الواقع من خلال تغييره للإنسان إنطلاقاً من الوحي القرآني في الإسلام الذي يعتبر الإنسان أساس التغيير كما جاءت به الآية الكريمة : إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتّي يغيّروا ما بأنفسهم. . وبذلك تدخل العبادة في عمق حركة الحياة، ولاتبقي حالةً طارئةً طافيةً علي السطح. . وهكذا يستطيع العاملون للإسلام - في أساليبهم التربوية العملية - أن يشجّعوا الناس علي ممارسة هذه الفريضة؛ لتحقيق هذا المستوي من التغيير الداخلي في حياة الإنسان، كوسيلةٍ متقدمة روحية من وسائل التغيير الخارجي لحركة الحياة. . فإن ما يختزنه الفرد من الطاقات الروحية الجديدة في أجواءالحج، هو أعظم من كثير من الأساليب الخاطبية التي اعتاد الناس ممارستها في عملية التربية. .

وقد رأينا الكثيرين الذين كانوا لا يعيشون المشاعر الروحية في منطلقاتهم، في الوقت الذي كانوا يمارسون فيه الالتزام الإسلامي في بعض مبادئ الإسلام وأحكامه. . قد تغيروا كثيراً بعد قيامهم بهذه الفريضة بطريقة واعية بحيث استطاعت أن تغير مجري تفكيرهم

وشعورهم فيما يعيشون فيه من فكر وشعور. . وتحوّلوا إلي عناصر فاعلة واعية في حركة الإسلام في الدعوة والعمل.
ولكن هل هذا كله هو ما تعنيه لنا هذه الفريضة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا هذا التأكيد علي وحدة المكان الذي تمارس فيه، وعلي هذا الحشد العظيم من الناس الذي تتنوع أجناسه وألوانه وقومياته ولغاته. . بطبيعة شمول الإسلام كدين لكل هذه الأنواع من الناس. . ؟ لماذا لم يكن كالصوم وكالصلاة اللذين يمارسهما الإنسان في نطاق فردي أو جماعي حسب اختياره. . ؟ هل هناك سرّ يتعدّي الجانب التربوي الفردي إلي الجانب الإجتماعي والسياسي؟ هذا ما نحاول أن نستوحيه فيما نريد أن نثير من حديث.
المنافع العامة:
إنّ أوّل ما نلتقيبه من نصوص الحج هو النداء الأوّل الذي وجّهه الله للنبي إبراهيم (عليه السلام) في دعوة الناس إلي الحج. . وذلك في قوله تعالي: وأذّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلي كل ضامرٍ يأتين من كلّ فجٍ عميقٍ لِيشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيّامٍ معلوماتٍ علي ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير.
فإننا نجد في هذا النداء دعوةً إلي أن يشهدوا منافع لهم من دون تحديدٍ لطبيعتها وحجمها، للإيحاء بالانطلاق في هذا الاتجاه للبحث عن كل المجالات النافعة التي يمكن لهم أن يحققوها من خلال الحج في حياتهم الفردية والاجتماعية إلي جانب الروح العبادية المتمثلة بذكر الله في ايّام معدوداتٍ، شكراً لنعمه وتعظيماً لآلائه وتطبيقاً لتعليماته في توجيه هذه النعمة إلي ما أراده من الإنفاق علي الفئات المحرومة البائسة.
وقد يثير القرآن أمام بعض المواضيع حالةً من حالات الإبهام والغموض من أجل أن يدفع الإنسان إلي البحث، في كل اتجاهٍ يتعلق بالموضوع ليحقق الشمول والامتداد في آفاقه فلا يتجمّد أمام فرضيّةٍ واحدةٍ، أو وجهٍ معين، أو اتجاهٍ خاص. . وبهذا يكون التشريع حركةً متجدّدة في خطّ الإبداع والنمو والتقدم. .
٢- ورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) فيما حدّث به هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبدالله ((جعفر الصادق)) فقلت له: ما العلّة التي من أجلها كلّف الله العباد الحج والطواف بالبيت؟ فقال: إنّ الله خلق الخلق. . (إلي أن قال) وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة في الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من االشرق والغرب ليتعارفوا، ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلي بلد، ولينتفع بذلك المكاري والجمال ولتعرف آثار رسول الله (صلّي الله عليه وآله وسلّم) وتعرّف أخباره، ويذكر ولا ينسي. ولو كان كل قوم إنما يتكلون علي بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد، وسقطت الجلب والأرباح وعميت الأخبار ولم تقفوا علي ذلك، فذلك علّة الحج. .
٣- عن الفضل بن شاذان عن الإمام علي الرضا (عليه السلام) قال: إنما أُمروا بالحج لعلّة الوفادة إلي الله - عزوجل - وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً ممّا مضي، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس [الانفس] عن اللذات شاخصاً في الحرّ والبرد ثابتاً علي ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلّل مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع، لجميع من في شرق الأرض وغربها، ومن في البرّ والبحر، ممّن يحج وممّن لم يحج، من بين تاجر وجالب وبائع ومشترٍ وكاسب ومسكين ومكار وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف من المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقُّه ونقل أخبار الأئمة إلي كل صقعٍ وناحية كما قال الله عزّوجل: فلو لا نفر من كلّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون. وليشهدوا منافع لهم. . . . .

٦الحجّ ملتَقي المسلمين:
إننا نستوحي من هذين الحديثين، أن الإسلام أراد للحج أن يكون ملتقيً للمسلمين جميعاً في شرق الأرض وغربها، من أجل تحقيق التعارف والتواصل بينهم، وتحصيل المنافع الاقتصادية والاجتماعية لمن حجّ ولمن لم يحج، وتبادل التجارب والخبرات المتنوّعة، التي يملكها كل فريق من خلال أوضاعه العامة والخاصة. . وتسهيل حركة الدعوة إلي الله بالانطلاق من موسم الحج للاتصال بكل المناطق الإسلاميّة التي تتمثّلُ بأفرادها، الذين يقصدون بيت الله االحرام؛ لأداء الفريضة فيمما يتعلمونه من ثقافة الإسلام وشريعته، وفيما يتعاونون فيه من مشاريع وأعمالٍ وخططٍ علي أساس المصلحة الإسلاميّة العليا. . لينطلق العمل الإسلامي من قاعدة مركزيّةٍ واسعة. . في أجواء الإسلام التاريخية التي شهدت مولد الدعوة وعاشت حركيتها، وحقّقتْ أهدافها الكبيرة في جهادها االمرير الصعب، فيكون التحرك في الخط من موقع الفكرة والجوّ والخبرة المتبادلة والمعاناة الحاضرة.
وهكذا يعيش الناس فيما يقصدونه من مزارات أجواء الإسلام الأولي، التي يعيشون معها الإحساس بالانتماء الروحي والعملي لهذا التاريخ، مما يوحي لهم بأن الإسلام الذي ينتمون إليه يمتدّ إلي تلك الجذور العميقة الطارئة في أعماق الزمن، وبأن عليهم أن يعطوا هذا التاريخ امتداداً من خلال جهادهم ومعاناتهم. كما استطاع المسلمون أن يحققوا لهم هذا الامتداد الذي يتصل بمسيرتنا الحاضرة. . وبذلك لن تكون الزيارات تقليداً يفقد معناه، وعبادة تتجمد أمام المزار؛ لتنفصل عن معني التوحيد العميق؛ الذي يخلص العبادة لله دون غيره، ولا يتحرك نحو جهةٍ أوشخصٍ أو عمل إلا من خلال تعاليم الله التي انزلها علي رسوله. . الأمر الذي يعطي كل تحرّك معناه الروحي، فيما تعطيه حركة التاريخ من مضمون إنسانيّ إسلاميّ، يغني التجربة، ويعمّق الإيمان.
سقوط الفوارق:
وعلي ضوء ذلك، نفهم أنّ: اللقاءات التي يخطّط لها الإسلام من خلال هذه الفريضة العباديّة، لا بدّ من أن تعيش الهدف الكبير في تحقيق لقاء إسلاميّ شامل؛ ليستهدف إلغاء كل الفوارق الطبقية واللونية والعرقية والإقليمية. . من خلال التفاعل الإنساني الروحي الذي تحققه هذه اللقاءات التي تتمّ في أجواء روحية خالصة، يستشعر فيها الجميع بالقيمة الإسلاميّة علي هدي الممارسة في وحدة الموقف واللباس والشعار والتحرّك. . فيلغي المشاعر الطارئة المضادّة، التي يمكن أن يتعامل من خلالها الاستعمار الكافر، لتفتيت طاقاتهم وتدمير وحدتهم. . حتي اذا نجح في بعض خطواته، فيما يستغلّه من بعض الأوضاع السلبية. . كان الحج له بالمرصاد ليبعثر تلك الخطوات الشريرة، ويفوّت عليه عمليّة الاستغلال هذه، بما يثيره من مشاعر طاهرة وأفكارٍ واعية، وخطواتٍ إيمانية متحركة يقظة.
.
بين الخطّة والواقع:
ذلك هو بعض ما نستوحيه من تشريع الحج في مدلوله الإجتماعي والسياسي، إلي جانب مدلوله الروحي العبادي التربوي، وذلك هو ما مارسه الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) عندما كانوا يعتبرون الحج قاعدة للحوار مع كل الفئات المنحرفة، كما كانوا يحاولون أن يحقّقوا اللقاء بكل العناصر الطيبة التي يريدون لها أن تسير في الخطّ الإسلامي المستقيم، في خطة توجيهية عملية شاملة. . .
فماذا عن الواقع الذي يعيشه الحج في هذهِ المرحلة من تاريخ الإسلام؟
إننا نلاحظ حشداً كبيراً من البشر، الذين يفدون إلي بيت الله الحرام من مشارق الأرض ومغاربها، من مختلف القوميات والألوان، ونستمع إلي كثير من الأصوات التي تعجّ بمختلف

اللّغات، وإلي الإبتهالات التي ترفع إلي الله من شفاه المؤمنين ومن قلوبهم مستغفرة شاكية باكية، ونشاهد كيف تتقايض الدموع الخاشعة من العيون الحائرة
ن النّار. . ونتابع
الحجيج في خطواتهم وأعمالهم، فنلاحظ الإلحاح علي تجميد شعائر الحج في نفوسهم، في محاولةٍ للحفاظ علي الشكل بعيداً عن المضمون. . فإذا دخلت إلي مجتمعاتهم فإنك ستري العلاقات العادية، التي اعتادوها في بلادهم التي جاءُوا منها، بكل ما تشتمل عليه من سلبيّات، وما تفرزه من نتائج سيّئةٍ تعبث بأجواء الحج أيما عبث، وتسيء إليه إساءة. . وهكذا لا تجد هناك مجتمعاً يترابط أفراده بالهدف الواحد، بل نجد أفراداً يعيشون شكل المجتمع من دون معني أو روح. .
هذا في المدلول الذاتي للحج إن صح التعبير. .
فإذا تطلّعت من جديد إلي الجوّ الداخلي للمسلمين، فماذا تجد؟ إنك ستجد الاختلافات المذهبية بين المسلمين تتحجّر وتتجمّد في صيغ جامدة لا يملك أصحابها تحريكها أو توجيهها، أو إفساح المجال لها لتتنفس الهواء النقي الذي يجدّد لها أفكارها، ويبعث فيها المرونة والحيوية، التي تدفعها إلي الحركة والحوار حتي كأن الفكر الإسلامي لدي كل فئةٍ وقف في بعض لحظات التاريخ عند أشخاص معينين، وكفّ عن الحركة في المراحل الزمنية الأخري. . ولعل من المفارقات أن الكثيرين ممن يقلّدون المجتهدين لا يدّعون لهم العصمة في رأي واجتهاد، ولكنهم لا يحاولون أن يناقشوهم في فتاواهم أو آرائهم، بل يثيرون الغبار في وجه كل من يحاول ذلك. . وقد لا يقتصر الأمر علي ذلك بل يتعداه إلي المحاولات المتشنجة التي يقوم بها كل طرف إسلامي ضد الأطراف الأخري في أساليب متنوعة فيما تملكه من عناصر الإثارة التي لا تقوم علي أساس من الفكر الهادئ المتّزن والأسلوب الإيماني المنفتح، الذي أرشدنا الإسلام إليه ودعانا إلي ممارسته فيما نختلف فيه من فكر، وفما نتنازع فيه من أمر. . وبذلك يتحول هذا المجتمع الإسلامي إلي مجتمع تتزايد فيه المشاحنات والأحقاد بدلاً من أن يكون مجتمعاً تذوب فيه كل هذه العوامل السلبيّة. .
أمّا الجانب السياسي فقد لا تجد فيه أية حركة إيجابية جادة تتناول قضايا المسلمين بالدرس والمناقشة والمعالجة، سواء فيما يتعلق بالأوضاع السياسية التي يعيش فيها المسلمون مشاكل الحرية والعزة والكرامة، بسبب وقوعهم تحت قبضة الاضطهاد الاستعماري والفكري والعنصري، أو فيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية التي تتصل بثرواتهم المعدنية والزراعية، فيما يواجهه المسلمون من محاولات ظالمة في الضغط المتواصل، من قبل الدول المستعمرة الكافرة، لتعطيل خطط التصنيع والإنتاج في سياسة الاكتفاء الذاتي التي يطلع إليها العالم الإسلاميّ، وذلك لإبقاء هذه الشعوب سوقاً إستهلاكية لمنتجاتها، الأمر الذي يجعلها تحت رحمة الحروب الصغيرة التي تثيرها الدول الكبري المستكبرة فيما بينها من أجل أن تشغلها عن خطط التنمية والتطوير، وذلك بفضل عملائها الذين تضمن إخلاصهم لها من خلال ضمانها لمراكزهم التي يتربعون عليها. .
إنك لا تشعر بارتفاع الأصوات الهادرة، التي تحاول أن تثير المشاعر الإسلاميّة ضد هذا الواقع السيء كوسيلةٍ من وسائل الإثارة نحو التغيير. . وذلك لأن الأجواء المحيطة بالواقع السياسي هناك تمنع من أيّ حركةٍ في هذا الاتجاه. لما يحقّقه ذلك من تفجير للطاقات الشعبية في الخط السليم المضاد لذلك الواقع. .
وقد حاولت الثورة الاسلاميّة في إيران في السنة الأولي لانطلاقتها، أن تحرّك الجوّ الإسلاميّ هناك، من خلال طرحها للشعارت الإسلاميّة التي تعالج قضايا المسلمين في العمق والامتداد. وأن تدعوا المسلمين إلي تحويل الحج إلي مؤتمر إسلاميّ عام، تبحث فيه المشاكل الصعبة التي يعانيها العالم الإسلامي وذلك في محاولةٍ إلي أن يقوموا

بالحركة الإسلاميّة العالمية في الخط الإسلامي السليم الذي يعالج كل أوضاع العالم الإسلامي بصدقٍ إخلاص. . ولكن هذه المحاولة قوبلت بالضغط والتضييق والقهر والتشويه، وذلك نتيجة الخوف من تغيير الأوضاع.
ير الإسلاميّة،
سواء منها الاتجاهات الماركسية، أو القومية، أو الاشتراكية، أو الإقليمية وبين الاتجاهات الإسلامية المختلفة في تطلعاتها وخططها وأهدافها. . كما نواجه الواقع السياسي الذي يعيش فيه المسلمون بين واقع خاضع للسيطرة الاستعمارية الكافرة بشكل مباشر، كما في فلسطين وإريتريا والفيليبين وغيرها من البلاد الخاضعة للاستعمار القديم والجديد، وبين واقع خاضع للحكم الإستعماري المقنع بقناع وطني أو إسلامي فيما يمارسه من ظلمٍ واضطهاد وطغيان وتفتيت للثروات والطاقات الإسلامية وتضييعها في الفراغ، وإفساد للفكر والعمل والواقع في كل مجالات الحياة. . ويمتد هذا الواقع السيء فيمتثل في الأوضاع الاقتصادية القلقة التي تضغط علي المسلمين في طريقة الإنتاج والاستهلاك وتوزيع الثروة وإهدار الطاقة وتخطيط الاقتصاد علي أساس المصالح الاستعمارية. .
أما الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية فإنها تنحدر بشكل عجيب فيما يتنافي مع التخطيط الإسلاميّ للمجتمع وللأخلاق. .
. . . إننا نواجه هذا الواقع الذي يتحدّي وجودنا الإسلامي في الصميم، ونشعر - معه - بغياب الإرادة الإسلاميّة الواحدة في مواجهته وتغييره. . بل ربما نجد أمامنا الإرادة المضادة التي تعمل علي استمراره وزيادة انحرافه بفضل عملاء الكفر والاستعمار من حكام بلاد المسلمين وقادتهم. . وذلك من خلال أساليب الضغط علي الحركات الإسلاميّة الرائدة القائدة، بإعدام قادتها وإغتيالهم، وتفتيت قواعدها، وتخليدهم في السجون التي يلاقون فيها أبشع ألوان العذاب الوحشي مما لا يخطر علي قلب بشر. . والتضييق علي الفكر الإسلامي الواعي بمنع الكتب والمجلات الإسلامية الهادفة الملتزمة، وإفساح المجال للفكر المنحرف والخليع من أجل تمييع الإنسان المسلم. . ومنع اللقاءات الإسلاميّة، والاجتماعات الثقافية والسياسية الهادفة. . في كل بلدٍ يحكمه هؤلاء. . ومحاولة إثارة الخلافات المذهبية وتحويلها إلي عنصر تفجير للواقع الإسلامي في أوضاع طائفية سياسية حاقدة. .
إن هذا الواقع يفرض علينا العمل علي تحويل موسم الحج. . إلي موسم إسلاميّ كما أراده الله؛ ليكون مجمعاً للمسلمين يلتقي فيه المفكرون في حوار فكري إسلاميّ سليم؛ ليصلوا إلي القناعات المشتركة، أو المتقاربة، أو ليفهموا وجهة نظر كل منهم؛ ليعرفوا ارتكاز الجميع علي أسس فكرية إسلاميّة، فيما يتوصل إليه المجتهدون والمفكرون. . . ويعلموا علي أساس الوصول في نهاية المطاف، بالصبر والفكر، إلي الوحدة في الفكر والأسلوب والعمل.
وفي هذا الاتجاه، يعمل المخلصون علي لقاء الحركات الإسلاميّة من سائر أنحاء العالم الإسلامي، من أجل ان يتبادلوا الأفكار والخبرات ويتعارفوا فيما يحملون من تطلعات وأهداف، وفيما يرتكزون عليه من منطلقات ليكتشفوا من خلال ذلك في أنفسهم ما يختلفون فيه، ليبحثوا كيف يحولونه إلي قناعات مشتركة، وما يتفقون عليه ليستزيدوا منه في الجوانب الأخري ويحولوه إلي خطوات عملية للتعاون من أجل تكامل العمل الإسلامي من جهة، وتوحيد الطاقات الفاعلة في سبيل حل مشاكل الإسلام والمسلمين من جهة أخري. . وليبحثوا مشاكل التحرر من الاستعمار والخروج من سيطرة الضغوط السياسية والاقتصادية، ليتحرك الجهاد الإسلامي في حياة المسلمين من موقع الفكر الإسلاميّ

الذي يستهدف عزة المسلمين وكرامتهم في دولة إسلامية هادفة مظفّرة، علي أساس الوسائل الإسلاميّة المشروعة والخطط الواقعية المدروسة.

ءة الفكرية لا

تستطيع - غالباً - أن تمنح الموقف الإسلامي وضوحاً في الصورة، بحيث تزيل الشبهات العالقة في أذهان القائمين علي الحركات ضد بعضهم البعض، التي خمدت كثيراً من فرص اللقاء علي الأسسس الإسلاميّة المشتركة.

وقد تحتاج إلي توجيه العمل إلي لقاء المسلمين ببعضهم البعض في أجواء إسلاميّة حميمة، يتحادثون فيها فيما بينهم، في كل ما يهمهم من قضايا؛ وذلك بالزيارات الفردية والجماعيّة لجمعيات الحجاج وأماكن تجمعهم، ليتحسسوا الشعور بالوحدة من خلال اكتشاف الهموم المشتركة ولقضايا الواحدة، والأهداف الكبيرة التي يلتقون فيها علي اسم الله. . ليحقّق ذلك رفضا لكل الخطط والمشاعر، التي يعمل الكافرون من خلالها علي عزل المسلمين عن بعضهم، من خلال االشعور القومي أو الإقليمي أو غير ذلك.

. . أما قضايا الجهاد الإسلامي فإنها تستفيد من موسم الحج الكثير مما يحققه ممن اجتماع القيادات الواعية التي لا تستطيع أن تجتمع في مكان آخر يمارس فيه الظالمون الاضطهاد والملاحقة لكل العالمين للإسلام. . فإن مثل هذا الاجتماع يصحح كثيراً من الانحرافات، ويوّحد كثيراً من الجهود وينظم كثيراً من الأعمال المتنوعة المبعثرة، وهناك الكثير الكثير من المنافع والفوائد التي نستطيع أن نحققها في هذا الموسم الإسلامي الكبير. . مما يجب أن نفكر فيه ونعمل له. . ونصل إليه من أهداف.

ولكن. . هل نحن في محاولة للتنظير المترف. . وهل يتحقق ذلك كله؟ . . فقد يفرض السؤال نفسه علينا من خلال الواقع السلبي المنحرف. . الذي يعيشه موسم الحج الآن. . كيف يتحقّق ذلك كله؟ .